المرأة

كيف عاملها الإسلام

الشيخ

حسن بن عبدالله آل الشيخ

رحمه الله

[كتيب] المجلة العربية [٤٠]

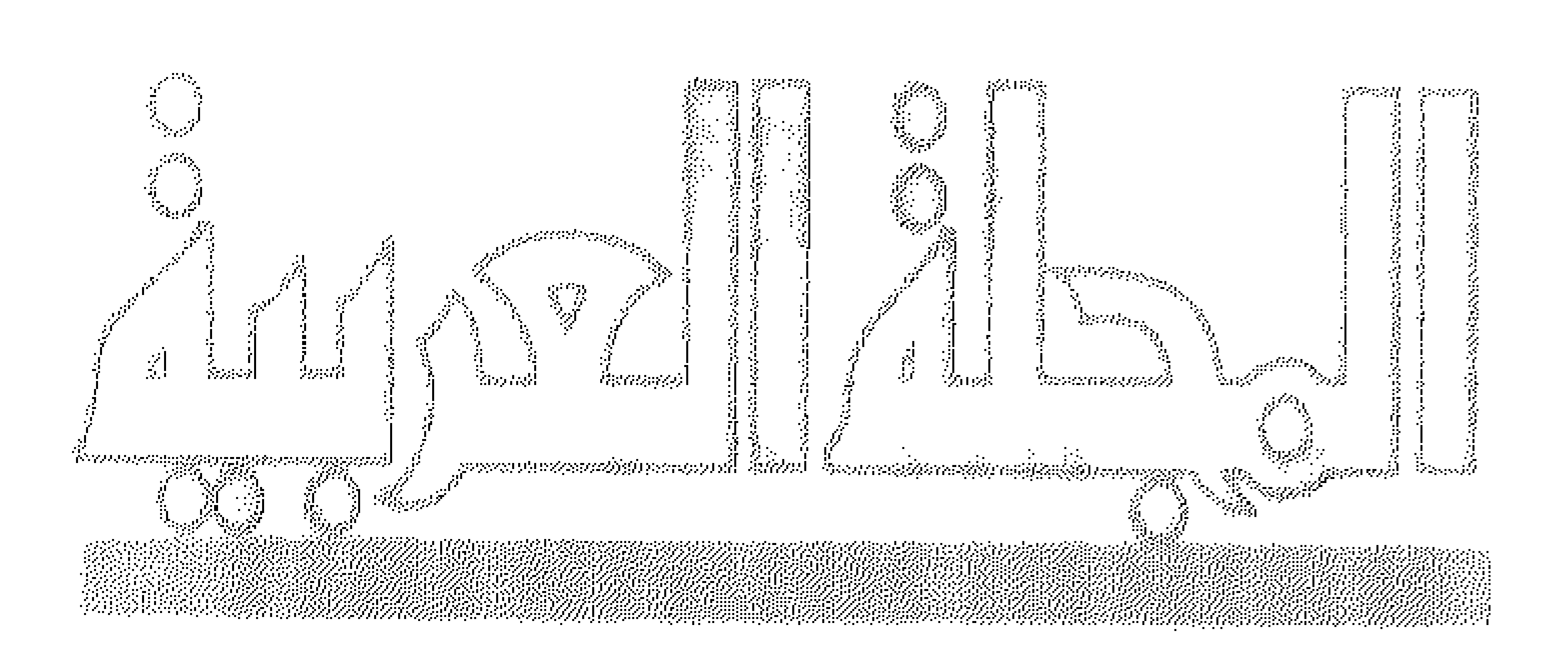
العدد الأربعون ـ ربيع الآخر ١٤٢١هـ / يوليو ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المرأة
كيف عاملها الإسلام

حسن بن عبدالله آل الشيخ
رحمه الله

*



ثقافية ـ اجتماعية ـ جامعة

تصدر في المملكة العربية السعودية

رئيس التحرير :

حمد عبدالله القاضي

هاتف ٤٧٧٩٧٩٢

الرياض ـ طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) ـ شارع المنفلوطي

سنترال ٤٧٧٨٩٩٠ ـ فاكسملي، ٤٧٦٦٤٦٤ تلكس (عربي/لاتيني) S.J ٤٠٠٥٨٨

ـ ص.ب ٥٩٧٣ الرياض ١١٤٣٢

عنوان « المجلة العربية » على الإنترنت:

WWW.ArabicMagazine.com.

لمراسلة « المجلة العربية » على الإنترنت:

hnfo@arabicmagazine.com.

الكاتب في سطور



• ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٥٢هـ.

• تلقى دراسته الابتدائية بمكة المكرمة، ثم بالمعهد العلمي السعودي، ثم التحق بكلية الشريعة بمكة المكرمة وتخرج فيها عام ١٣٧٣هـ.

• كان يدرس على والده الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ الكثير من العلوم الشرعية، وقد حفظ القرآن الكريم وهو لم يتجاوز السنة الحادية عشرة من عمره ـ رحمه الله.

• عُيّن أول ما تخرج من كلية الشريعة في رئاسة القضاء بالمنطقة الغربية وتدرج في وظائفها حتى أصبح عضواً في رئاسة القضاء ثم نائباً لرئيس القضاء ثم اختير وزيراً للمعارف في عام ١٣٨١هـ، واستمر في هذا المنصب حوالي ١٤ عاماً وأثناء هذه الفترة تولى وزارة الصحة عدداً من السنوات بالإضافة إلى عمله وزيراً للمعارف ثم اختير وزيراً للتعليم العالي في عام ١٣٩٥هـ حتى وفاته ـ رحمه الله ـ. بالإضافة إلى عمله وزيراً فقد كان نائباً للرئيس الأعلى للجامعات، ورئيس مجلس دارة الملك عبدالعزيز، والمشرف العام على (**المجلة العربية**).

• له عديد من المؤلفات والكتابات في النواحي الشرعية والاجتماعية والأدبية.

• توفي ـ رحمه الله ـ مساء يوم السبت الموافق ١٤٠٧/٥/١٧هـ عن عمر ناهز الخامسة والخمسين إثر نوبة قلبية رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

بسم الله الرحمن الرحيم

وفي البدء كلمة :

النساء شقائق الرجال، والمرأة والرجل هما جناحا المجتمع يطير بهما في آفاق الحياة الرحيبة ولكل منهما رسالته التي يؤديها بما يكفل استقرار المجتمع ونمائه وتماسكه ولقد كفل الإسلام للمرأة حقوقها وكرمها بمساواتها مع الرجل في الحقوق والواجبات يقول الله تعالى:﴿ومن عمل صالحًا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾ النحل آية ٩٧ . وحسبها أن (الجنة تحت أقدام الأمهات). بينما المرأة الغربية لم تصل إلى ما وصلت إليه المرأة المسلمة فهي مع ما أتيح لها من الحرية المنفلتة والتي جعلت منها ألعوبة بيد الرجل ورقيقًا أبيضًا مستباحاً فهي مازالت حتى الآن تأخذ اسم زوجها وتلغي عائلتها متى ماتزوجت. وبفضل الله لم يعرف المسلمون وجود إشكالية بين المرأة والرجل بل تحوطهما المحبة والتعاون المشترك لما فيه صالحهما وصالح المجتمع. ومحاولة إثارة هذه المسألة في المجتمع المسلم بدعوى نصرة المرأة، وادعاء أخذها لحقوقها، ذات أهداف مشبوهة،

مكشوفة أبعادها. ومفضوحة غاياتها. ويمكن الاطلاع على هذه الدعاوى في كثير من الدراسات العلمية ومنها على سبيل المثال لا الحصر (موسوعة الأسرة المسلمة للدكتور عبدالكريم زيدان).

ولقد سعدنا بإرسال معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر نص محاضرة فضيلة الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ**، وهي(المرأة وكيف كرمها الإسلام*) مقترحًا أن تكون ضمن كتيبات «**المجلة العربية**» فوجدناها مناسبة وقيمة فقد بينت مكانة المرأة المسلمة وكيف كرمها الإسلام بأسلوب سهل وطرح علمي وقد قمنا بتوثيق نصوصها وتحقيق شواهدها.

وسيجد فيها القارئ بعامه والقارئات بخاصة توجيهاً صادقاً وفكراً رشيداً عرف عن كاتبها رحمه الله في كل كتبه ومؤلفاته ومافيها من التحذير من الإنزلاق في دعاوى المبطلين وعدم الاغترار بزخرف أقوالهم.

• المجلة العربية

* ألقيت في النادي الأدبي بجدة في عام ١٤٠٥هـ وطبعت طبعة محدودة.

** لمعرفة المزيد عن التعريف بالشيخ حسن، انظر كتاب (الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ الذي لم يرحل) من تأليف حمد بن عبدالله القاضي.

تمهيد

موضوع حديثي هذا هو التعرف على كيفية معاملة ديننا الإسلامي العظيم للمرأة .. هل هو ظالم لها؟ ومحطم لطموحها؟ وحاجز لها من الإسهام في حياتها والتأثير فيها؟

أم هو معل لمنزلتها، وحافظ لكرامتها، وصائن لها عن الابتذال والتردي؟.

وهذا الموضوع كما تعلمون واسع الأبعاد طويلها ..لكنني سأحاول الاختصار والإيجاز ضنًا بوقتكم، وراغبًا إلى غيري ممن هو أقدر مني أن يتحدث عنه بأوسع مما فعلت لأنه يستحق الإعادة، ويحتاج إلى الشمول وينبغي أن يكون أمره واضحًا لكل الناسين أو الغافلين أو المخدوعين.

المرأة في العصور القديمة

لم تكن المرأة في عصر من عصور التاريخ السحيقة في المكانة التي تليق بها، وكانت الأمم تتفاوت في درجة تجاهلها لها وإهدارها حقوقها وآخرها أمة العرب قبل الإسلام حيث كانوا يئدون البنات خشية العار، ولئلا يطعمن معهم، وذاك أمر شديد القسوة، أن يعمد الأب إلى دفن ابنته حية حيث تقضي نحبها تحت أنقاض الرمال المتداعية بفعل أقرب الناس إليها.

قال تعالى عن ذلك: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء مايحكمون﴾.النحل آية ١٦

وبعث الله سيدنا محمدًا عليه أفضل الصلاة والسلام بدعوته العظيمة الإصلاحية فأوقف سلسلة المظالم التي تواجهها المرأة. وحدد لها

مكانها الطبيعي، وأعلن أنها والرجل في دين الله سواء، وأنزل الله عليه كتابه العظيم الذي يعلن في وضوح وفي أكثر من موضع هذه الحقيقة المشرقة. قال تعالى:﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءاً﴾. النساء آية (١) والخطاب للناس (خطاب) لذكورهم وإناثهم.

وقال تعالى:﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾. النحل آية ٩٧ . ويوم القيامة ينادي الرجال وزوجاتهم من الصالحين:﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾. الزخرف الآية (٧٠) وبعد أن كانت سنة العرب قبل الإسلام أن لايؤول إلى النساء من ميراث الرجال شيء وكانوا يقولون:(لايرثنا إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة). فإذا مات الرجل ورثه ابنه. فإن لم يكن فأقرب من وجد من أوليائه أبًا كان أو أخًا أو عمًا.

جاء الإسلام فرفع هذا الظلم عن النساء، قال تعالى:﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان

والأقـربون وللنسـاء نصـيب مما ترك الـوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبًا مفروضًا﴾ النساء آية (٧).

ثم تتالت المواقف الإنسانية الراحمة من نبيِّ الأمة بالمرأة في كل مراحلها .. حدّث الإمام البخاري عن سعد بن أبي وقاص قوله:(مرضت بمكة مرضًا أشفيت منه على الموت فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم يعودني. فقلت: يارسول الله، إن لي مالاً كثيرًا وليس يرثني إلا ابنتى أفأتصدق بثلثي مالي؟. قال لا.قلت فالشطر؟. قال لا: قلت الثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس. وإنك لن تنفق نفقة إلا أجرت عليها، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك)[1].

وقال تعالى:﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾. البقرة (٢٢٨) وهي درجة الرعاية والقوامة والحماية. لايتجاوز بها جحود حقها أو إهدار كرامتها، وفي حديث مسلم عن أسماء بنت يزيد الأنصارية: أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت: بأبي

وأمي أنت يارسول الله. أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة. فآمنا بك وبإلٰهك، إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجُمع والجماعات وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وأن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا أومجاهدًا، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا يارسول الله ماظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها فقال: (افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء إن حسن تبتل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله). فانصرفت المرأة وهي تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب وعرضت عليهن ماقاله لها

رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحن وآمن جميعهن[٢].

وسئلت عائشة رضي الله عنها ماكان عمل النبي صلى الله عليه وسلم في بيته؟ فقالت:(كان في مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة)[٣].

تريد أنه يعاونهن ويعمل معهن.

وكانت فضليات الصحابة يخرجن في رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزواته يداوين المرضى، ويأسون الجرحى ويسقين الماء، منهن أمية بنت قيس الغفارية قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار فقلنا: يارسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا- وهويسير إلى خيبر- فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا فقال: (على بركة الله). وأم سنان الأسلمية جاءت إلى رسول الله وهو خارج إلى خيبر فقالت يارسول الله: أخرج معك في وجهك هذا. أخرز السقاء، وأداوي المريض والجريح. إن كانت جراح – ولاتكون – وأبصر الرحل فقال صلى الله عليه وسلم. أخرجي على بركة الله.

فإن لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم. إن شئت فمع قومك. وإن شئت فمعنا. قلت: معك. قال فكوني مع أم سلمة زوجتي فكنت معها- ولكثير غيرهن(٤).

وكانت المرأة في الإسلام- كما كانت في الجاهلية- تجير الخائف وتفك العاني فقد أجارت أم هانيء بنت أبي طالب رجلين من أحمائها كتب عليهما القتل.. وفي ذلك تقول:-

(لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فر إلى رجلان من أحمائي من بني مخزوم فدخل على علي بن أبي طالب أخي فقال: والله لأقتلنهما. فأغلقت عليهما باب بيتي. ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: مرحبًا وأهلاً يا أم هانيء ماجاء بك؟. فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي. فقال عليه الصلاة والسلام : قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء(٥).

وصان الإسلام سيرة المرأة، وحمى عرضها كأكمل ماتكون الصيانة والحماية. حيث قال تعالى في حق قاذفي المحصنات: ﴿والذين يرمون

المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون﴾ النور آية (٤). فجعل جل شأنه للقاذف عقوبات ثلاث: (الجلد) ثم ،إطراح شهادته وعدم قبولها أبدًا)، والثالثة هي (إلحاق صفة الفسق به) وهي شر الصفات وأبشعها. وفي الآية يقول تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون* يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق يعلمون أن الله هو الحق المبين﴾سورة النور آية (٢٢-٢٤).

وجعل لها الحرية في أمرين هما أهم أمورها لديها وهما: الزواج والمال. ليس لأحد أن يجبرها على زواج من تكره .. ولها أن ترفض مالاترضى.

وقد أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (لاتنكح الأيم حتى تستأمر ولاالبكر حتى تستأذن)[٦].

وأبطل النبي صلى الله عليه وسلم زواجًا أكرهت فيه فتاة بكر على الزواج بأمر أبيها لمصلحة له

في زواجها بابن أخيه.
حدثت عائشة رضي الله عنها فيما رواه النسائي: (أن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني من ابن أخيه يرفع بي خسيسته وأنا كارهة. فقالت: إجلسي حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبرته. فأرسل إلى أبيها فدعاه. فجعل الأمر إليها. فقالت يارسول الله: قد أجزت ماصنع أبي. ولكني أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء)[٧].
وقصة «بريرة» وهي جارية من جواري الحبشة ملكها عتبة بن أبي لهب وزوجها عبداً من عبيد المغيرة ماكانت لترضاه لو كان لها أمرها، فأشفقت عليها عائشة أم المؤمنين فاشترتها وأعتقتها. فقال لها رسول الله: ملكت نفسك فاختاري، وكان زوجها يمشي خلفها ويبكي وهي تأباه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ألاتعجبون من شدة حبه لها وبغضها له. ثم قال لها: اتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك. فقالت: أتأمرني؟ قال: لا إنما أنا شافع: فقالت: إذاً فلا حاجة لي إليه)[٨].

ولها مطلق الحرية في مالها دون نزاع أو تسلط.
وكان من شأن العرب في جاهليتهم أن الرجل إذا مات عمد أخص أوليائه وأقرب ورثته فوضع ثوبه على امرأته. وقال: أنا أحق بها. ثم إن شاء تزوجها وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها لتفتدي نفسها بما ورثت عن زوجها.
فجاء الإسلام محرما لذلك، ومنصفًا للمرأة ومطلقًا لحريتها في قوله تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا﴾ النساء آية(١٩). وقال تعالى مخاطبًا الأزواج في معرض منحه حرية المرأة لها:﴿ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾. فأصبح حرامًا على الرجل أن يستبقيها على كره منها، وإعنات منه لتفتدي نفسها بما بقى من صداقها إلا إذا أتت بفاحشة مبينة فتلك ليس لها حق تطالب به ولاتتنازل عنه.

مفهوم العناية الصادقة بالمرأة

إن الحديث عن عناية الإسلام بالمرأة وإنزالها مكانتها التي تليق بها حديث لاينتهي أبدًا، ولايمكن أن يتجاهله من له أدنى بصيرة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ولو أردت المضي في إيضاح الدلائل والشواهد لشققت عليكم لكني سأعود فيما يشبه الإيجاز إلى جمع شتات هذا الأمر الذي يحتاج إلى طَرْقِهِ من جميع جوانبه، عناية بدين الله المحتوى على الفضائل، ودفعًا لأبنائنا وأحفادنا على الثقة بدينهم، والفخر بالانتساب إليه، والقدرة على الدفاع عنه، فهو قد احتفى بالمرأة وحمى واقعها في كل أدوار حياتها .. احتفى بها في بداية حياتها وهي (ابنه) فعاب وحرم الوأد للبنات في قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراءًا على الله قد ضلوا وماكانوا

مهتدين﴾الأنعام آية (١٣).
وكان قيس بن عاصم المنقري يتحدث بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم عن ضحاياه من الموؤدات وأنه ذهب باثنتي عشرة منهن فقال عليه الصلاة والسلام: (من لايرحم لايرحم)[٩]. وأمره أن يعتق بكل واحدة جارية مؤمنة.
وكان العرب يأنفون أن يداعب الرجل وليدته أو يسمح لها أن تمرح بين يديه ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يداعب الولائد من بناته وبنات أصحابه. فقد حدث البخاري عن أبي قتادة قال:(خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامه بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها)[١٠].
وقالت عائشة رضي الله عنها: جاءتني امرأة معها ابنتاها تسألني. فلم تجد عندي غير تمرة واحدة فأعطيتها، فقسمتها بين ابنتيها. ثم قامت فخرجت، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال: (من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترًا من النار)[١١]. وقال عن ابنته فاطمة رضي الله عنها. (فاطمة بضعة مني يسوؤني مايسوؤها

ويسرني مايسرها) وقال الزهري: (كانوا -يريد أصحاب رسول الله- لايرون على صاحب ثلاث بنات صدقة ولاجهادًا لحاجتهن إليه وشغله بهن، والعناية بتربيتهن).

واحتفى الإسلا بالمرأة وأكرمها (زوجة). قال تعالى:﴿ومن آياته، أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾الروم آية٢١)* وأوضح نوعية التلاقي بين الزوجين حيث يقول: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾سورة النساء آية (١٩). وقال عليه الصلاة والسلام: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)[١٢]. وأذن عليه الصلاة والسلام لفتيان الحبشة فلعبوا بحرابهم بين يديه في المسجد. ودعا عائشة رضي الله عنها فوطّأ لها عاتقه، وحاط وجهها بيده، ومكنها من مشاهدتهم حتى سئمت). وروى ابن عبد ربه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقال: ﴿أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت نعم. قال: فبعثتم معها من يغني؟ قالت: لا. قال: أو ماعلمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل. ألابعثتم معها من يقول:

أتينــاكــم أتينــاكـــم فحييونــا نحـييكم
ولولا الحبة السمـراء لـم نحلـل بواديـكـم(١٤)

وحدث البخاري عن الربيع بنت معوذ قالت: (جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بنى علي. فجلس على فراش، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف. حتى قالت إحداهن. وفينا نبي يعلم مافي غد. فقال: دعي هذا وقولي بالذي تقولين)(١٥)

ونظم الخالق تعالى الصلة بين الزوجين في قوله عز شأنه:﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾النساء آية (١٩).

وهي كما ترون تحدد في جلاء الإطار الرائع الذي يجب أن يحتوي واقع الزوجين في الإسلام ومدى التزام كل منهما بالآخر، وأن الحب وحده ليس هو مبرر استمرار الزوجية.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل طلق امرأته:(لم طلقتها؟ قال: لأحبها. فقال: أكل البيوت بنيت على الحب؟ أين الرعاية والذمم؟)(١٦).

واعتنى الإسلام بها أمـا فَقَرَن القرآن الكريم بين حق الله تعالى وحق الوالدين في قوله تعالى:﴿أن اشكر

لي ولوالديك إلي المصير﴾ سورة لقمان آية (١٤).
وقال تعالى:﴿وبالوالدين إحسانًا﴾الأنعام آية (٦).
وقوله صلى الله عليه وسلم: (لرجل جاء إليه فقال: يارسول الله من أحق بحسن صحبتي؟ قال: أمك. قال ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟قال: أمك. قال: ثم من؟: قال أبوك[١٧]. وكان صحابة رسول الله والتابعون لهم بإحسان لاينفكون مطيعين لأمهاتهم، محسنين إليهن، اتباعًا لأوامر الله ورسوله ومن ذلك حديث عبدالله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما. وذلك بعد أن دان لعبدالله بن الزبير العراق والحجاز واليمن. ثم أخذ عبدالملك بن مروان يقاومه. فغلبه على العراق ثم جهز له الحجاج بن يوسف الذي أخذ يغلبه على أمره حتى انتهى إلى مكة المكرمة فطوقها ونصب المجانيق على الكعبة المشرفة وأهوى بالحجارة عليها. وفي الكعبة يومئذ أسماء بنت أبي بكر. وكان عبدالله يقاتل جند الحجاج مسندًا ظهره إلى الكعبة وليس حوله إلا القليل من رجاله. والحجاج يرسل له من يمنيه الخير ويعده بالأمان لوبسط يده بالبيعة.

ودخل عبدالله بن الزبير في أثر ذلك على أمه فقال: يا أماه خذلني الناس حتى أهلي وولدي. ولم يبق معي إلا اليسير. ومن لادفع له أكثر من صبر ساعة من النهار.

وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ قالت: الله الله يابني إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه فامض فيه ولاتمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيلعبوا بك. وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار ولامن فيه خير، كم خلودك في الدنيا القتل أحسن ما يقع بك ياابن الزبير. والله لضربة بالسيف في عز أحب إلي من ضربة بالسوط في ذل، فقال: يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. قالت: يابني إن الشاة لايضرها السلخ بعد الذبح، فامض على بصيرتك واستعن بالله. فقبل رأسها وقال لها:هذا والله رأيي. والذي قمت به داعيًا إلى الله، والله مادعاني إلى الخروج إلا الغضب لله عز وجل أن تهتك محارمه، ولكني أحببت أن أطلع على رأيك

فيزيدني قوة وبصيرة مع قوتي وبصيرتي. والله ماتعمدت إتيان منكر، ولاعملاً بفاحشة، ولم أجر في حكم، ولم أغدر في أمان ولم يبلغني عن عمالي حيف فرضيت به، بل أنكرت ذلك.

ولم يكن شيء عندي آثر من رضاء ربي، اللهم إني لاأقول ذلك تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت: والله إني لأرجو عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، أخرج حتى أنظر إلام يصير أمرك؟ ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل، وذاك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبره بأمه. اللهم إني قد سلمت فيه لأمرك ورضيت فيه بقضائك فأثبني في عبدالله ثواب الشاكرين. قال: يا أماه لاتدعي الدعاء لي قبل قتلي ولابعده. فقالت: لن أدعه فمن قتل على باطل فقد قُتِلتَ على حق، فتناول يدها ليقبلها وقال: جئت مودعًا لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا. قالت: امض على بصيرتك؟

وادن مني حتى أودعك. فدنا منها فعانقته وقبلته. فوقعت يدها على الدرع. فقالت: ماهذا صنيع من

يريد ماتريد، فقال: مالَبِستها إلا لأشد متنك. قالت إنها لاتشد متني فنزعها ثم درج لمته، وشد قميصه وجبته، وخرج وقال لأصحابه: احملوا على بركة الله وليشغل كل منكم رجلاً، ولايلهينكم السؤال عني فإني على الرعيل الأول، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون. وهناك رماه رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه فأخذته منه رعده فدخل شعبًا من شعاب مكة يستدمي. فبصرت به مولاة له فقالت: وا أمير المؤمنين فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك وقتلوه وصلبه الحجاج وأقام جثمانه على الجذع. حتى إذا أمر عبدالملك بإنزاله أخذته أمه فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه ثم كفنته وصلت عليه ودفنته). رحمه الله ورحمنا[١٨].

لاتزال هناك أمور يحسن بحثها وربما كان في لقاء آخر بإذن الله لكنني سأتعرض وبسرعة لأمر طالما تحدث عنه الناس، وطالما خدع بعضهم البعض الآخر بتمويه وجه الحقيقة فيه، ذلكم هو المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة.. وهو مطلب عادل إن كانت المساواة المطالب بها هي المساواة في دين الله ذلك المبدأ الأزلي العظيم الذي يقتضي توزيع الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء على سبيل التكافؤ. أو المماثلة الواضحة في قول الله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ البقرة آية (٢٢٨). وما أوضحه القرآن الكريم من تقريرأن الرجل من المرأة والمرأة من الرجل في قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم إني لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾آل عمران آية (١٩٥). أما حينما تتخذ المطالبة بالمساواة المزعومة مظهر التجاهل التام للفروق الواضحة بين الجنسين، في الخلق، والتكوين، والموهبة، والاستعداد فهي الخداع الواضح، والقول المردود، فالله تعالى أعلم وأحكم بخلقه من خلقه. ساوى بينهم في عقيدتهم إذا أخلصوها لله، وساوى

بينهم في الثواب على أعمالهم الصالحة إذا تساووا في حجم الطاعة والإيمان بالله، لكنه تعالى اختص كل جنس بمواهب خاصة وقدرات معينة لايقدر عليها غيره، لتتم عمارة الكون ويمضي أمر الله في خلقه كما أراد ويريد. وكانت الإجابة القاطعة في ذلك فيما روى أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ومعها نسوة قالت: ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل مالهم[١٩]. فنزل قوله سبحانه: ﴿ولاتتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليمًا﴾ النساء آية (٣٢). وختام هذه الآية تأكيد واضح لما هو متقرر وراسخ من شمول علم الله بكل شيء. فهو العالم بعباده، والمطلع على قدراتهم ونوازع نفوسهم، وهو بعلمه الشامل الذي لايشذ عنه شيء خلق الرجال ومنحهم مايتلاءم مع دورهم في الحياة وخلق النساء ومنحهن مايتلاءم مع دورهن، وكلا الدورين يمضيان قدما بالإنسانية إلى مسيرتها في نظام بديع متقن. ولاتستقيم حياة الناس بدون الاعتراف بالحكمة الواضحة في كل ماتقع عليه العين من مخلوقات الله بشرًا أو جمادًا أو حيوانًا.

﴿ألايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾سورة الملك آية (١٤). بلى فهو يعلم من خَلَقَ قبل خلقه وبعد خلقه. يعلمه ويعلم مايقيم حياته، وماتوسوس به نفسه .. والقائلون إن المساواة يجب أن تتم بين الجنسين في كل أمر. حتى في القدرات والأعمال. إنما يقولون مالادليل عليه من تكوين الفطرة ولاحتى من تجارب الأمم ولامن حكم المشاهدة والبداهة. بل قام الدليل على نقيضه في جميع هذه الاعتبارات، ولم تتجاهل الأمم فوارق الجنسين إلا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التي تضطر من يتجاهلها إلى الاعتراف بها بعد حين، ولو من قبيل الاعتراف بتقييم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثًا بعد أن غبرت عليهما ألوف السنين، وأحرى أن يكون طول الزمن مع تطور الأحوال الاجتماعية سببًا لاختصاص كل منهما بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر، ولاسيما في الخصائص التي تفترق فيها لغاية الحياة البيئية، وكفاية الحياة الخارجة، فإن طول الزمن لايلغي الفوارق بل يزيدها، ويجعل لكل منها موضعًا لايشابه سواه.

والأمثلة لاتحصى منها احتفاظ الرجل بالقدرة على بقاء وظيفة النسل به، طليقة ماصلحت بنيته حتى المراحل الأخيرة من عمره بينما هي غير ذلك في المرأة. حيث

يندر أن تبقى لها تلك القدرة على التناسل بعد سن الخمسين، وحتى في الأعمال التي انقطعت المرأة لها في غالب الأحوال كالطبخ، وعمل الأزياء وصناعة التجميل ورثاء العزيز من الموتى. وهي أمور، يبدو أنها مما تختص به المرأة لكن الرجل تغلب عليها من حيث القدرة على أدائها - والبراعة في ذلك.

والقوامة التي وهبها الله للرجل على المرأة في قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ النساء آية (٣٤). لاتعني تفضيل معدن الرجل على معدن المرأة فهما شقيقان ينحدران من نفس واحدة، وهو تفضيل لايغض من قدر إنسانية المرأة، لأنه ناشئ من تفرقة عضوية بينها وبين الرجل لامن تفرقة في الجوهر والمعدن.. ومثل هذه التفرقة لاتستوجب الأسى عليها فإن فضل الله معقود بتزكية النفوس، لابتفرقة عضوية اقتضتها حكمة الله لضمان استدامة حياة البشر وتكاملها. وفي الشبيه من ذلك قول الله تعالى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾النحل آية (٧١). فهل هذا التفضيل الإلهي النابع من الحكمة- التي قد يجهلها الكثيرون- هل هذا التفضيل يؤدي إلى انتقاص قدر المفضول في الرزق عند الله إذا أخلص له وعمل من أجله؟ اللهم لا. لكن من حكمته أن يخدم الناس بعضهم

بعضًا وهكذا فالرجل يذهب في المجتمع ليحقق ما أراده الله من إنجازات ومهام.. والمرأة تذهب في المجتمع لتحقق ما أراده الله له لها من أعمال ومهام وهل هناك أعظم أو أسمى من دور المرأة في تربية أطفالها وإعدادهم إعدادًا متكاملاً لخوض معركة الحياة، فالأطفال هم الشباب غدًا وهم الرجال بعد غد..... إذا لم يجدوا بجوارهم أمًا تحنو عليهم وتسبغ عليهم من عطفها وحمايتها ورعايتها مما هم بحاجة إليه. فإنهم يتحولون إلى ما يشبه الدمى وتتكون عاداتهم وطبائعهم بعيدًا عن القلوب التي تخفق بحبهم، وتعمل من أجل تكوينهم والمتناقضات التي يحياها شباب اليوم في كل مكان أليس من المعتقد أن من الأسباب وراءها أن أولئك عاشوا حياتهم بعيدين عن أحضان أمهاتهم وصدورهن المليئة بالحب .. قضوها في دور الحضانة، أو لدى مربيات يمارسن عملهن كما يمارس الموظف عملاً يعتبره وسيلة لكسب عيشه دون أن يشعر بمتعة ممارسته له.. وكثيرًا ماكنت أسائل نفسي: هل احتياج الأطفال ينحصر في إعطائهم أقدارًا من الحليب، ووضع الملابس على أجسامهم؟ وهل يكفي ذلك ليكون الطفل سويًا متكامل المشاعر؟ وأجد الإجابة واضحة، في السلوك الماثل في واقع الأطفال الذين يحيون بين أحضان أمهاتهم وآبائهم

وينعمون بحنانهن وحبهم.. وأولئك الذين حرموا من تلك النعمة وبالتالي لايصعب على المرء أن يلحظ مايكتنفهم من اضطراب، وما يشمل حياتهم من شذوذ.

إن رسالة المرأة هي بناء الأسرة وإدارة المنزل حتى تعيش مع أسرتها في جو هادئ مريح يبعث على النشاط المطلوب لاستمرار عمل الحياة ولايمنع من ذلك أن تعمل في حال احتياجها أو رغبتها في المجالات التي يمكنها أن تؤديها بلامخالفة لطبيعة تكوينها، وواقع استعدادها والتي يمكنها أن تنجح في أدائها لاتفاقها مع إمكاناتها.

إن أي خروج على الطبيعة التي خلقها الله لنا، وأودع فينا الاستجابة لانطلاقتها يعتبر تعطيلاً لحكمة الله في الخلق، وسببًا للكثير من الآلام النفسية والحسية، ومؤديًا للكثير من المتاعب التي يعيشها الناس(١٩)، ولاسبيل إلى عودة السعادة وهناء الحياة وسكينتها، إلا بالإذعان لحكمة الله وبديع خلقه، وممارسة الحياة كما أرادها الله ويسرها(٢٠).

جعلنا الله جميعًا من العاملين من أجله، المحققين لرسالته، ولاحرمنا من التعرف على جليل حكمته، وبديع صنعه.

الهوامش:

(١) رواه الجماعة الإمام أحمد والإئمة الستة) أنظر نيل الأوطار) للشوكاني ٣٧/ ٦.

(٢) رواه ابن حجر العسقلاني في مجمع الزوائد ٣٠٨/٤ والمنذري في الترغيب والترهيب ٥٣/٣ .

(٣) الحديث روته عائشة رضي الله عنها حينما سئلت ماذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعمل في بيتـه فقالت: (كان يكون في مهنـة أهله). أي في خدمتهم.

(٤) أحاديث غزو النساء المسلمات ومشاركتهن في الجهاد توضحها الأحاديث الصحيحة أنظر صحيح البخاري. كتاب الجهاد باب مداواة النساء الجرحى في الغزو الحديث ٢٨٨٢ وصحيح مسلم وشرحه للنووي حديث ١٨٨٢٢ .

(٥) البخاري حديث ٤٣٠ ومسلم الحديث ٧١٩ .

(٦) رواه مسلم في كتاب النكاح باب (استئذان الثيب في النكاح).

(٧) رواه الإمام أحمد والنسائي.

(٨) رواه البخاري في كتاب (الطلاق) باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرةج١١ ص٣٢٨ ولابن حجر في (فتح الباري شرح صحيح البخاري) كلام نفيس حول القصة ج١١ ص٣٣٤-٤٣٥ .

(٩) ورد حديث (من لايرحم من في الأرض لايرحمه من في السماء). أخرجه الطبراني في الكبير ٤٠٧/٢ وقال المنذري قوي جدًا في الترغيب والترهيب.

(١٠) صحيح البخاري كتاب (الصلاة) باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة ج٣ ص١٣٧ .

(١١) البخاري حديث ١٠١ .

(١٢) رواه الطحاوي في (مشكل الآثار) ٢١١/٣ من حديث ابن عباس وأنظر آداب الزفاف للألباني).

(١٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داوود أنظر (آداب الزفاف) للعلامة الألباني حيث ساق الروايات وخرّجها.

(١٤) رواه الطبراني (١/١٩٧/١) وسكت عنه وفيه ضعف.

(١٥) رواه البخاري ٢/٣٥٢، ٩/١٦٦ -١٦٧).

(١٦) أثر مروي عن الصحابي الجليل عمر بن الخطاب. انظر (أخبار عمر) للشيخ علي الطنطاوي.

(١٧) رواه البخاري حديثه ٥٩٧١ .

(١٨) أنظر قصة حركة ابن الزبير في (البداية والنهاية لابن كثير) ج٦ ص١٠٥، ومابعدها تحقيق الأستاذ صدقي العطار نشر دار الفكر بيروت وأنظر مسألة الخروج على الأئمة وبيان الترجيح بعدم الخروج في كتاب (الإمامة العظمى عند أهل السنة) تأليف د/ عبدالله الدميجي .

(١٩) مسألة المساواة بين الرجل والمرأة والتي يدعو لها بعض المغرضين لاتتفق والعلم الحديث فهذا العالم الأمريكي المشهور (الكسيس كاريل) في كتابه لقيم (الإنسان ذلك المجهول)، يرفض هذه الدعوى قائلاً (إن المرأة تختلف اختلافًا كبيرًا عن الرجل فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها .. إلى أن يقول فعلى النساء أن يؤسسن أهليتهن تبعًا لطبيعتهن دون أن يلجأن إلى تقليد الذكور فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال فيجب عليهن ألايتخلين عن وظائفهن المحددة ص١٠٩ من الكتاب المذكور.

(٢٠) مسألة عمل المرأة كتب فيها كثيرون من العلماء والمختصين برؤية رشيدة منهم (د. محمد علي البار في كتابه (عمل المرأة في الميزان) ود/ عبدالرب تواب الدين في كتابه(عمل المرأة وموقف الإسلام منه) والأستاذ سالم بن عبدالعزيز السالم في كتابه (عمل المرأة) ضمن سلسلة (قضايا نسائية معاصرة).

في الأعداد القادمة من:

المجلة العربية

* مشكلة المياه - آفاقها ومستقبلها
د. خالد الحمودي
* العبقرية وأسسها الأربعة
فهد عامر الأحمدي
* الطب الشعبي .. حقائق وخرافات
د. حسام الدين أبو السعود
* الفكاهة في أدب الشيخ علي الطنطاوي
أحمد علي آل مريع